

من الأقوال إلى الأفعال: أدلة مستمدة من الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر لتطبيق المبادئ على أرض الواقع

أميليا ب. كاياز

«أميليا ب. كاياز» هي مستشارة أولى في شعبة السياسات الإنسانية في الصليب الأحمر البريطاني. بدأت في العمل مع الحركة الدولية للصليب الأحمر والمنظمات غير الحكومية منذ عام 1997، عندما أوفدت لأول مرة إلى البانيا وكوسوفو.

ملخص

يوضح هذا المقال، الذي يستند إلى أدلة مستقاة من خمس جمعيات وطنية مختلفة، كيفية تطبيق المبادئ الأساسية للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر تطبيقاً عملياً في السياقات المختلفة في عالم اليوم. فقد أثبتت البحوث أن المبادئ ليست محض مفاهيم مجردة، بل أدوات عملية لاستهلال طائفة من البرامج وتنفيذها، لا سيما في الأوضاع الصعبة. وتتمثل أهمية المبادئ الأساسية في زيادة الوصول أثناء النزاعات وفي حال السلم على حدٍ سواء. ويمثل وجود قيادة قوية عاملاً مهماً لكفالة تطبيق المبادئ، لا سيما عند ظهور تحديات تواجه حياد المنظمة. وفي نهاية المطاف، تتضافر المبادئ السبعة جميعاً وتزويد من قوة البرامج عندما تعمل في إطار الحركة.

الكلمات الرئيسية: الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، المبادئ الأساسية، الجمعيات الوطنية، تطبيق المبادئ، المتطوعون، القيادة.

.....

عدم التحيز يعني أن تسمع وتلاحظ دون أن تطلق أحكاماً قيمية. فلست مضطراً لأن تسدي مشورة لأحد أو أن تحاول تغييره. وأنا أقوم بذلك كثيراً.¹

المتطرفون هنا لا يقبلون بالإنسانية.. مبدأ الإنسانية.²

تتألف الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر (الحركة) من اللجنة الدولية للصليب الأحمر (اللجنة الدولية) والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر (الاتحاد الدولي)، فضلاً عن 189 جمعية وطنية حسب العدد المرصود وقت كتابة التقرير الحالي. ويتمثل أحد الجوانب التي تربط عمل الحركة في جميع البلدان في الالتزام بمبادئ الحركة الأساسية. ويُفترض أن تسترشد جميع أعمال الحركة بالمبادئ الأساسية السبعة، التي تم الاتفاق عليها في فيينا عام 1965، في مجالات مواجهة الكوارث الطبيعية، والنزاعات وسائر حالات العنف، والتأهب لمواجهة الطوارئ، وفي كونها عوناً مساعداً للحكومات.³ وتتمثل المبادئ الأساسية السبعة في الإنسانية وعدم التحيز والحياد والاستقلال والخدمة التطوعية والوحدة والعالمية. انظر **الجدول 1** للاطلاع على تعريف كل مبدأ من هذه المبادئ.

وقد أعرب المجتمع الإنساني الأوسع— بما في ذلك المنظمات غير الحكومية ووكالات الأمم المتحدة والجهات المانحة في المجال الإنساني— عن قبوله بالمبادئ الأساسية الأربعة الأولى على نطاق واسع باعتبارها مبادئ إنسانية يُسترشد بها في عمله، وهي مبادئ: الإنسانية وعدم التحيز والحياد والاستقلال. ووافقت عليها بوجه عام طائفة واسعة من الأطراف المعنية منذ إقرارها في مدونة سلوك حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر والمنظمات غير الحكومية في إطار برامج مواجهة حالات الكوارث في عام 1994 (مدونة السلوك لعام 1994). كما تم تدوينها في قرار الأمم المتحدة 182/46 في عام 1991، وقرارها 58/114 في عام 2004، والممارسات السليمة في تقديم المنح الإنسانية في عام 2003،⁴ ومشروع اسفير،⁵ وتوافق الآراء الأوروبي بين الحكومات.⁶ ونُشرت مجموعة من الدراسات خلال العقد الماضي بشأن المبادئ الإنسانية (والمبادئ الأساسية: انظر أدناه). وإن كانت الدراسات الصادرة عن القطاعين الإنساني والأكاديمي تتصل بأمثلة تتعلق بتحدي هذه المبادئ ومزاعم انتهاكها أكثر من كيفية تطبيقها والغرض منها. ويتناول كثير من الدراسات السابقة التحديات الناجمة عن الإجراءات التي تتخذها الحكومات والدول المانحة ومجلس الأمن التابع للأمم المتحدة والإرهابيون ووكالات مكافحة الإرهاب.⁷ وغالباً

1 مقابلة مع متطوع يعمل في مجال الرعاية الاجتماعية لدى الصليب الأحمر، أوماغ، آب/ أغسطس 2014.

2 مقابلة مع زميل يعمل في ميدان إدارة الكوارث في آسيا، المكان محجوب، تشرين الأول/ أكتوبر 2015.

3 يمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات على الموقع الإلكتروني التالي:

<https://www.icrc.org/eng/resources/documents/red-cross-crescent-movement/fundamental-principles-movement-1986-10-31.htm>

(أتيح الوصول إلى جميع المراجع على الإنترنت في تموز/ يوليو 2015).

4 يمكن الاطلاع على «المبادئ الأساسية السليمة للمنح الإنسانية» على الموقع الإلكتروني التالي:

www.worldhumanitariansummit.org/node/434472.

5 انظر:

<http://www.sphereproject.org/sphere/ar/>

6 يمكن الاطلاع عليه على الموقع الإلكتروني التالي:

http://ec.europa.eu/echo/files/media/publications/consensus_en.pdf.

7 على سبيل المثال، انظر النقاش الوارد في Sarah Collinson and Samir Elhawary, Humanitarian Space: A Review of Trends and Issues, Humanitarian Policy Group (HPG) Report No. 32, Overseas Development Institute (ODI), London, April 2012, p. 1; Antonio Donini (ed.), The Golden Fleece: Manipulation and Interdependence in Humanitarian Action, Kumarian Press, Sterling, VA, 2012, pp. 2-40; Sara Pantuliano, Kate Mackintosh and Samir Elhawary with Victoria Metcalfe, Counter-terrorism and Humanitarian Action: Tensions, Impact and Ways Forward, HPG Policy Brief No. 43, ODI, London, October, 2011; Sorcha O'Callaghan and Leslie Leach, "The Relevance of the Fundamental Principles to Operations: Learning from Lebanon", International Review of the Red Cross, Vol. 95, No. 890, 2014, p.9.

الجدول 1: المبادئ الأساسية للحركة الدولية للسليب الأحمر والهلال الأحمر

الإنسانية	الحركة الدولية للسليب الأحمر والهلال الأحمر نبعت من الرغبة في تقديم العون إلى الجرحى في ميادين القتال دون تمييز، والحيولة دون وقوع المعاناة، وتخفيفها عن البشرية في جميع الأحوال وفقاً للقدرات الدولية والوطنية للحركة. وتهدف إلى حماية الحياة والصحة وإلى ضمان احترام الإنسان وتعزيز التفاهم المتبادل والصداقة والتعاون والسلام الدائم بين الشعوب.
عدم التحيز	لا تفرق الحركة بين الأشخاص على أساس الجنسية أو العرق أو المعتقدات الدينية أو الطبقة الاجتماعية أو الآراء السياسية، وكل ما تسعى إليه هو تقديم المساعدة للأشخاص حسب معاناتهم مع إعطاء الأولوية لأشد حالات المعاناة إلحاحاً.
الحياد	تتجنب الحركة الانحياز لأي من الأطراف أثناء العمليات القتالية أو الدخول في حوارات حول الخلافات ذات الطابع السياسي أو العنصري أو الديني أو الأيديولوجي في أي وقت من الأوقات وذلك لكي تحافظ على التمتع بثقة الجميع.
الاستقلال	الحركة مستقلة. ورغم أن الجمعيات الوطنية تعمل كأجهزة مساعدة للسلطات العامة فيما تضطلع به هذه الأخيرة من نشاطات إنسانية وتخضع للقوانين السارية في بلادها، فإنه يجب عليها أن تحافظ على استقلالها حتى تستطيع أن تتصرف بموجب مبادئ الحركة في جميع الأوقات.
الخدمة التطوعية	الحركة منظمة إغاثة تطوعية لا تحركها في أي حال من الأحوال الرغبة في تحقيق المكاسب.
الوحدة	لا يمكن أن تكون هناك سوى جمعية وطنية واحدة للسليب الأحمر أو الهلال الأحمر في البلد الواحد، ويجب أن تكون مفتوحة أمام الجميع وأن تغطي أنشطتها الإنسانية جميع أراضي ذلك البلد.
العالمية	الحركة الدولية للسليب الأحمر والهلال الأحمر منظمة عالمية وللجمعيات الوطنية فيها حقوق متساوية وعليها واجب مساعدة بعضها بعضاً.

المصدر:

<https://www.icrc.org/eng/resources/documents/red-cross-crescent-movement/fundamental-principles-movement-1986-10-31.htm>.

ما يُنظر إلى أهمية المبادئ الإنسانية بوصفها تعبيراً عن القيم العالمية لا باعتبارها أدوات عملية. إلا أن دراسات الحالة الواردة في المقال الحالي ستظهر استخدام الجمعيات الوطنية للمبادئ الأساسية على أساس يومي في أعمالها. وتكتسي هذا المبادئ أهمية بالغة في تحقيق الوصول وكفالة استمرار تركيز الجهود على أشد الفئات ضعفاً، وتحفيز الموظفين، ولا سيما المتطوعين، على القيام بهذا العمل المضني.

Sorcha O'Callaghan and Leslie Leach, «The Relevance of the Fundamental Principles to Operations: Learning from Lebanon», *International Review of the Red Cross*, Vol. 95, No. 890, 2014, p. 9.

مشروع تطبيق المبادئ على أرض الواقع التابع للصليب الأحمر البريطاني

أطلقت جمعية الصليب الأحمر البريطاني، منذ عدة سنوات، مشروعاً رائداً بعنوان «تطبيق المبادئ على أرض الواقع»⁸. ويتمثل الهدف من مشروع «تطبيق المبادئ على أرض الواقع» في تحسين توثيق الطرق التي يتم بها تطبيق المبادئ الأساسية، لمواصلة تعزيز استخدامها وفهمها. ويسعى المشروع إلى دراسة المجالات التي يكون لتطبيق المبادئ فيها دور مهم في زيادة الوصول وتحسين نطاق الوصول الإنساني وجودة الاستجابة الإنسانية. وخلال هذه العملية، يهدف الصليب الأحمر البريطاني إلى استقاء الدروس من الطرق الابتكارية والخلاقة التي تتوصلها الجمعيات الوطنية في استخدام المبادئ الأساسية من أجل زيادة استجاباتها الإنسانية ووصولها إلى فئات السكان المستضعفة. وقد استهل المشروع في ظل غياب أمثلة مجمّعة منهجياً لما هو مقصود بتطبيق المبادئ الإنسانية، والمبادئ الأساسية على وجه التحديد. وإضافة إلى ذلك، تفتقر الحركة إلى قاعدة الأدلة الحاسمة التي أنشئت لإطلاع صانعي السياسات على كيفية عمل المبادئ الأساسية. وأكدت مراراً، خلال أزمات معينة ومن على المنابر العالمية، الأهمية البالغة للمبادئ من أجل تحقيق الوصول وحماية العمل الإنساني.⁹ وتهدف هذه المبادئ إلى أن تكون أدوات للعمل الإنساني، إلا أن تطبيقها، أو بالأحرى التبعات المترتبة على تطبيقها، تبقى عسيرة على الفهم على نحو سليم. ولعل ما يعيب الحركة عدم الاستباق بتوفير أدلة قوية ومقيمة لكيفية استخدام المبادئ الأساسية، وسبب استخدامها، وما يحدث بالفعل عند استخدامها. ويتمثل أحد أغراض هذا المقال في تحديد بعض الدروس المستخلصة من الخبرات المكتسبة في طائفة من الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وتستند كاتبة المقال إلى دراسات الحالة السابقة لجمعية الصليب الأحمر اللبناني والهلال الأحمر الصومالي في إطار الحركة والتي أجرتها «سورشا أوكالاغن» و«ليزلي ليتش» و«جين باكهورست»¹⁰.

بناء قاعدة البيانات: المنهجية

يستخدم هذا المقال، ومشروع «تطبيق المبادئ على أرض الواقع» الذي يستند إليه، أساليب نوعية لمراكمة مزيد من الأدلة على تطبيق المبادئ الأساسية. وتفاوتت نوعية الأدلة وجودتها. فنشرت بعض الأعمال وخضعت لاستعراض أقران في وقت سابق، مثل دراسات الحالة في لبنان¹¹ والصومال.¹² في حين تُستمد أدلة أخرى من تقييم أعمال المشروعات التي تجريها جمعيات وطنية

8 يمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات على الموقع الإلكتروني التالي:

<https://www.redcross.org.uk/about-us>.

9 على سبيل المثال، انظر هذا البيان الذي وقعته تسع وعشرون منظمة إنسانية في شباط/فبراير 2015:

<http://www.medair.org/en/stories/medair-signs-joint-statement-on-humanitarian-principles-endorsed-by-30-huma/>.

10 دراسة حالة لبنان: «س. أوكالاغن» و«ل. ليتش»، الحاشية 7 أعلاه. دراسة حالة الصومال: «سورتشا أوكالاغن» و«جين باكهورست»، *Principles in Action in Somalia*، الصليب الأحمر البريطاني، 2013.

11 «س. أوكالاغن» و«ل. ليتش»، الحاشية 7 أعلاه.

12 «س. أوكالاغن» و«ج. باكهورست»، الحاشية 10 أعلاه.

مختلفة، مثل تلك العاملة في كينيا¹³ وأوغندا¹⁴ ويُسْتَقَى مزيد من الأدلة من المقابلات التي تُجرى مع ممارسين في الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر، مثل البحوث المأخوذة من كندا والسويد وأستراليا وأيرلندا الشمالية. وفي هذه الحالات، استرشد النهج المعتمد بمجموعة من الأسئلة. وأُعقب ذلك إجراء عملية تكرارية أتاحت للباحثين استكشاف التوبيعات المحلية للنهج.

ويستند مشروع «تطبيق المبادئ على أرض الواقع» الذي أطلقتته جمعية الصليب الأحمر البريطاني إلى الوثائق الداخلية في الحركة المستمدة من المواد المستخدمة في حلقات العمل والمشاورات والدورات التدريبية. وتشتق بعض البحوث محتواها من مشروع «الوصول الآمن»، بما في ذلك منهجيتها الخاصة بتحليل السياق¹⁵. ويسبق تقديم الأدلة المستمدة من الحركة استعراض وجيز للدراسات السابقة من القطاع الإنساني الأوسع والدوائر الأكاديمية التي تم في إطارها تقاسم الأدلة بشأن النهج العملية لتطبيق المبادئ الإنسانية.

ويجمع هذا المقال بين الخبرات المُعاشة للموظفين والمتطوعين، والأدلة الأخرى للدفع بالنقاط

التالية:

- تمثل المبادئ الأساسية أدوات عملية لتحقيق الوصول واستهلال البرامج لدى مجموعات جديدة من السكان المستضعفين، وتكتسب أهميتها من طابعها العملي. فهي ليست مبادئ مجردة، بل إنها تفضي إلى أنواع مختلفة من الإجراءات واتخاذ القرارات. كما أنها تضيف على الحركة طابعاً مميزاً، وتطرح كذلك تحديات فريدة من نوعها عند مواجهة الضغوط الواقعية.
- ولا تقتصر أهمية المبادئ الأساسية على حالات النزاع. فقد أثبتت أهميتها أيضاً للجمعيات الوطنية كافة، سواءً تلك التي تتعامل مع قضايا العنف أو الهجرة أو زيارات السجن أو الحد من مخاطر الكوارث، أو حتى مع كيفية تقديم الجمعية الوطنية إلى أي مجتمع محلي جديد.
- وتظهر أهمية القيادة بدرجة كبيرة عندما يتعلق الأمر بتنظيم عمل الجمعيات الوطنية وفقاً للمبادئ الأساسية، لا سيما عندما تفرض تحديات على طابع الحياد. فمن الأهمية بمكان «ترجمة الأقوال إلى أفعال» واتخاذ قرارات على أساس المبادئ الأساسية، مع إمكانية تحقيق نتائج هائلة على مستوى الوصول والقبول.
- وتعمل جميع المبادئ الأساسية السبعة على نحو متآزر. وتحدد معالم الحركة وفقاً لمبدأ الخدمة التطوعية. فيتولى نحو 17 مليون متطوع تنفيذ معظم الإجراءات التي تحدد معالم الحركة¹⁶. وتعمل المبادئ الأساسية كمصدر إلهام للمتطوعين، وترتبط أعمالهم بالحركة الأوسع وتاريخها لتحقيق آثار إيجابية.

13 Feinstein International Center, Kenya Red Cross and Nairobi Peace Initiative – Africa, *Conflict Management and Disaster Risk Reduction: A Case Study of Kenya, 2013*; Steven Hogberg, *Final Project Report: Kenya Community Violence Prevention Project – Tana Delta*, Canadian Red Cross, 2014; Gurvinder Singh, *CRCS Support for Violence Prevention in Tana Delta, Kenya*, Canadian Red Cross, 2013.

14 «أميليا كايان» و«باولا بايزان» و«سام كارينتر»، *Learning from the City: British Red Cross's Urban*, الصليب الأحمر البريطاني، 2013. انظر أيضاً إكساندرا غالبرين، *Final* *Learning Project Scoping Study*، الصليب الأحمر البريطاني، 2011. *Evaluation: Election Preparedness Program 2010/2011*، أوغندا، الصليب الأحمر البريطاني، 2011.

15 تتألف البحوث الصادرة من لبنان وجنوب أفريقيا من دراسات حالة محددة مأخوذة من «مشروع الوصول الآمن». ويعد «إطار الوصول الآمن» أداة ومنهجاً تستخدمه الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر لتعزيز قبولها وأمنها ووصولها إلى الفئات الضعيفة من السكان والمجتمعات. انظر:

www.icrc.org/ar/saferaccess.

16 الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، منشور *Global Review on Volunteering*، 2014، ويمكن الاطلاع عليه على الموقع الإلكتروني التالي:

<http://www.ifrc.org/ar/what-we-do/volunteers/global-review-on-volunteering/>.

- للعمل في إطار الحركة شأن مهم؛ فتمتد عدد كبير من المبادرات أو الأوضاع الصعبة التي خاضها شركاء الحركة وقاموا فيها بالعمل معاً أو بالتأهب للحدث قبل وقوعه، معترفين بالمزايا النسبية لكل منهم وبنقاط ضعفهم. وما هذا إلا تطبيق لمبدأ العالمية.

الدراسات السابقة في القطاع الإنساني المتعلقة بتطبيق المبادئ

تضمنت الدراسات الصادرة عن الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية والقطاعات الأكاديمية في الآونة الأخيرة بعض المحاولات لرصد بعض الدروس المستخلصة من تطبيق المبادئ الإنسانية الأربعة، إن لم يكن المبادئ الأساسية السبعة جميعاً. فعلى سبيل المثال، كلف مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية بإجراء دراسة في عام 2011 لفحص النهج التي تمكّن الموظفين من الحفاظ على حضورهم ووصولهم بدلاً من الارتكان إلى الإخلاء أثناء العمليات الإنسانية الشاقة. وفي مقابلات أجريت مع 1300 شخص من بين ممارسين للعمل الإنساني وموظفين محليين وصانعي قرار، وجد مؤلفو الدراسات أن المبادئ الإنسانية تحدث فرقاً فعلياً على مستوى العمليات، حسبما أفاد القائمون على إجراء العمليات. وأشار نحو 94% ممن أجريت معهم مقابلات إلى أن نظرة المجتمع للحياد لها تأثير حقيقي على أمن العمليات، «ووافقوا بشدة على فعالية المبادئ الإنسانية بوصفها أدوات عملية لتعزيز أمنهم الشخصي».¹⁷ وتبين أن عدم الالتزام بالمبادئ الإنسانية هو ثالث أكبر سبب يسهم في انعدام الأمن، حسب رأي الأفراد الذين أجريت معهم مقابلات.¹⁸

ويخلص التقرير إلى أن المبادئ الإنسانية لا تزال تمثل الأساس لاقتناع الأطراف المتحاربة بالسماح بوصول المساعدات الإنسانية في أوقات النزاع. ويضيف المؤلفون أن ثمة أهمية بالغة لتدريب الموظفين المحليين والوطنيين على المبادئ الإنسانية وفهم قيمتها العملية، وإبلاغها على المستوى العالمي كذلك.¹⁹

وشاركت كل من «يوليا ديوكوفا» و«بولين تشيتكوتي» في تأليف ورقة تهدف إلى التعرف على خبرات «مبادرة العمل على مكافحة الجوع» (ACF) عن طريق تطبيق المبادئ الإنسانية أثناء النزاع. وتدعم المنظمة صراحة التزاماتها إزاء المبادئ الإنسانية الأربعة بالإحالة إلى ميثاق المبادرة وقائمة المبادئ العملية الواردة فيه، بما في ذلك مبادئ عدم التمييز، والوصول الحر والمباشر إلى الضحايا، والمهنية، والشفافية. وتستكشف المؤلفتان التحديات المختلفة التي تواجه تلك المبادئ، مثل الحفاظ على الحياد أثناء النزاع، وضمان الاستقلالية عن الأجنحة السياسية للجهات المانحة، والثبات في مواجهة معارضة من في يدهم زمام السلطة على المستوى المحلي.²⁰ وتعود دراسة التحديات والإجراءات الفعلية المتخذة لمواجهةها بالنفع على الوكالات الأخرى لمعرفة كيفية تعامل منظماتهم إذا ما واجهت ظروفًا مماثلة.

17 «يان إنغلند» و«اديلي هارمر» و«أبي ستودارد»، *To Stay and Deliver: Good Practice for Humanitarians in Complex Security Environments*، مكتب تنسيق المساعدات الإنسانية، 1 آذار/مارس 2011، الصفحة 3، 46.

18 المرجع السابق، الصفحة 47.

19 المرجع السابق.

20 «يوليا ديوكوفا» و«باولا تشيتكوتي»، *Humanitarian Principles in Conflict – Ensuring Humanitarian Principles are Respected in Armed Conflict and Other Situations of Violence: ACF's Experience and Position*، الحركة الدولية لمكافحة الجوع، 2013.

وأجرت «أنغريد ماك دونالد» و«أنجيلا فاليننتسا» سلسلة من زيارات البحث الميدانية في أفغانستان وجمهورية الكونغو الديمقراطية وباكستان وجنوب السودان لصالح المجلس النرويجي للاجئين، وذلك للتعرف على مدى تطبيق المبادئ الإنسانية وكيفية تطبيقها.²¹ فوجدنا أن تطبيق المبادئ الإنسانية ساهم بالفعل في زيادة الوصول، حسبما أفاد الأشخاص الذين أجريت معهم مقابلات، لا سيما عند استخدامها لتأكيد مبدئي عدم التمييز (الحياد) والاهتمام بالفئات الأكثر استضعافاً (عدم التحيز). وأظهرت المقابلات أن المبادئ الإنسانية تسهم في دعم المفاوضات واستراتيجيات القبول عن طريق المساعدة في التفاوض بشأن السياسات المتعلقة بالمجتمعات المحلية وأصحاب المصلحة؛ والمساعدة في صوغ اتفاقات لبناء الثقة مع الحكومات والسلطات المحلية المعنية؛ وتوفير أساس للمفاوضات مع الجماعات المسلحة التي تسيطر على الأرض، والمساعدة في تخفيف الأثر الناجم عن تسريب المعونة واختلاسها.

وخلصت المؤلفتان إلى أنه يمكن للمنظمات أن تحسن كثيرًا من اتساق تطبيقها للمبادئ عن طريق توفير توجيهات داخلية واضحة وبسيطة، وتوفير تدريب محسّن وذو صلة، وإدماج المبادئ في أطر الرصد والتقييم والامتثال. كما أوصيتنا بشدة بتعزيز عمليات تقدير الاحتياجات الفردية والجماعية للوكالات المعنية.²²

وفيما يتعلق بالأدلة المقدّمة من داخل الحركة بشأن تطبيق المبادئ الأساسية، فضلًا عن العمل المشار إليه أعلاه والذي أجرته «سورثشا مكالاغن» وزملاؤها، أجرت «فيونا تيري» دراسة للنظر في تطبيق «اللجنة الدولية» لمبدأ الحياد في عملها في أفغانستان.²³ وتصف «تيري» في دراستها كيف استطاعت «اللجنة الدولية»، في أعقاب إحدى المآسي، إعادة التفاوض بشأن الوصول عن طريق الحفاظ على زيارات السجون للدعوة إلى معاملة السجناء معاملة إنسانية. وفضلًا عن ذلك، تحملت «اللجنة» تكلفة الإبقاء على سلسلة من المراكز الصحية من خلال شبكة من سائقي سيارات الأجرة. وفي وقت لاحق في إطار البرنامج، قدّم تدريب على الإسعافات الأولية للأشخاص الذين يعيشون في مناطق يسيطر عليها مقاتلو المعارضة وإجراء مفاوضات بشأن إطلاق الرهائن عمد إلى توسيع الحيز الإنساني الذي يمكن لـ«اللجنة الدولية» أن تعمل فيه. ولئن واجه الحياد تحديات أمنية يومية، فقد خلصت «تيري» في دراستها إلى أن «البقاء على الحياد أثناء النزاع ليس موقفًا أخلاقيًا بل هو ببساطة الأساس الذي ثبت حتى يومنا هذا أنه الأكثر فعالية للتفاوض بشأن الوصول إلى الأشخاص المحتاجين للمساعدة الإنسانية، أينما كانوا».²⁴

تطبيق المبادئ الإنسانية في جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر²⁵

نسعى لفهم معنى أن تكون ممثلًا للصليب الأحمر وسط مجتمع منقسم.²⁶

- 21 «إنغريد مك دونالد» و«أنجيلا فاليننتسا»، *Tools for the Job: Supporting Principles Humanitarian Action*, Norwegian Refugee Council and HPG (ODI)، تشرين الأول/أكتوبر 2012.
- 22 المرجع السابق. يتضمن التقرير أيضًا عددًا كبيرًا من التوصيات الموجهة للأطراف المانحة والحكومات بشأن تحسين الاستجابة الإنسانية الميدانية، أو عدم عرقلة هذه الاستجابة.
- 23 فيونا تيري، «The International Committee of the Red Cross: Reasserting the Neutrality of Humanitarian Action»، *المجلة الدولية للصليب الأحمر*، المجلد 93، العدد 881، 2011، الصفحة 173-188.
- 24 المرجع السابق، الصفحة 187.
- 25 هذا المقال لا ينظر بأي مستوى من العمق في تطبيق «اللجنة الدولية» للمبادئ الأساسية. ولهذا، يرجى الاطلاع على مقال «جيريبي لاييه» و«باسكال دودان» في العدد الحالي من المجلة.
- 26 مقابلة مع مدير التوظيف في الصليب الأحمر، ديربي/ لندن- ديربي، آب/ أغسطس 2014.

المبادئ الأساسية باعتبارها نقطة انطلاق عملية

تمثل المبادئ الأساسية، باعتبارها أساساً لجميع الاستجابات الصادرة عن الحركة، نقطة الانطلاق للمشاركة. وكما يظهر في المقابلات الواردة أدناه، تصاغ المبادئ بلغة محايدة ثقافياً وموثوقة. كما تمثل المنبر الذي يمكن من خلاله توضيح هوية الجمعيات الوطنية المعنية وغرضها وأولوياتها، بغية اكتساب القبول وتحقيق الوصول إلى أشد الفئات ضعفاً. ويكتسي هذا الأمر أهمية بالغة عندما يتعلق الأمر بمجتمع محلي جديد تسعى الجمعية الوطنية المعنية إلى التواصل معه.

وفي مقابلات أجريت مع زملاء من كندا وأستراليا وبريطانيا وكينيا، تبيّن أن المبادئ الأساسية غالباً ما تشكل جزءاً من المناقشات الأولى مع المجتمعات المحلية أو السلطات المعنية. وتمثل المبادئ الأساسية جانباً رئيسياً لهوية أي طرف يمثل الحركة. ويسمح ذلك للمنظمة باستهلال الأعمال المهمة استناداً إلى تقييمات جديدة للهشاشة. كما أن من شأنها أن تكفل التزام المتطوعين والموظفين بمعايير سلوكية معينة.

ومنذ أكثر من 20 عاماً، أجرى الصليب الأحمر الكندي تقييماً جاداً لأوجه الهشاشة والقدرات المتاحة في عموم البلاد كشف أن السكان الأصليين في كندا لا يحصلون على خدمات كافية من السلطات وسجلوا درجة مرتفعة للغاية على عدد من مؤشرات الهشاشة، على سبيل المثال، من حيث شدة تعرضهم لمخاطر الفيضانات والطوارئ الثلجية، وانخفاض مستوى قدرتهم على السباحة وتدابير الحماية الذاتية، وارتفاع مستويات إدمان الكحوليات، وارتفاع مستوى تعرضهم للعنف والأذى، والمشكلات الصحية، وارتفاع مستويات إحاق الأطفال بمؤسسات الرعاية مقارنة ببقية السكان.

وقررت الإدارة تعيين موظفين جدد للعمل على تحسين وصول المجتمعات الأصلية للعمل مع الصليب الأحمر الكندي، لا سيما تحسين منهجيتها المتعلقة بمنع العنف.²⁷ فضلاً عن ذلك، أجري إصلاح شامل للمناهج التعليمية وحزم التدريب المخصصة للموظفين والمتطوعين من أجل تعزيز أهميتها وقبولها لدى هذه المجتمعات.

وتصف «شيلي كاردينال»، المستشارة الوطنية لشؤون المجتمعات الأصلية في برنامج منع العنف والإساءة، المبادئ الأساسية بأنها جزء لا يتجزأ من عملية تقديم الصليب الأحمر الكندي للمجتمعات المحلية:

مهمتي هي المبادئ الأساسية. أستخدمها حتى يتسنى للناس معرفة ما يمكن أن يتوقعوه مني بكل وضوح. أقدم لهم المبادئ وأقول لهم أيضاً إن هذه هي المبادئ التوجيهية التي أعمل على أساسها. أحدثهم عن الحياض، وأرى منهم الاهتمام الشديد. وهذا أحد الأسئلة الكبرى التي يثيرونها؛ فالناس يريدون أن يسمعوا عن الحياض. أعتقد أن ذلك يعود إلى أن كثيراً من علاقة المجتمعات الأصلية بالدولة تنتم بالمعارضة السياسية؛ وهذه فكرة جديدة تميز عملنا بوضوح.²⁸

27 يستخدم الصليب الأحمر الكندي برنامجاً للتعليم الوقائي وبناء القدرات يطلق عليه اسم Respected بغية التصدي لحالات العنف والإساءة. وللحصول على مزيد من المعلومات بشأن هذا النهج، يرجى الاطلاع على الموقع الإلكتروني التالي:

<http://www.redcross.ca/training-and-certification/course-descriptions/violence--bullying-and-abuse-prevention-courses>.

28 مقابلة مع «شيلي كاردينال» من الصليب الأحمر الكندي، أيلول/سبتمبر 2014.

وعند تقديم الصليب الأحمر الكندي إلى هذه المجتمعات، تستخدم «كاردينال» أداة تظهر المبادئ الأساسية على شكل خيوط موصولة بمبادئ مقبولة للمجتمعات الأصلية (انظر الشكل 1). ويوضح ذلك أن المبادئ الأساسية تمثل جزءاً من حلقة مثمرة من المبادئ الأخلاقية تتفق مع بعضها البعض وتدعم بعضها بعضاً، وإن ظلت في الوقت ذاته متميزة عن بعضها. وبهذه الطريقة، توفر المبادئ الأساسية دعماً مباشراً للوصول إلى المجتمعات المستضعفة واكتساب القبول لدى تلك المجتمعات. وخلال السنوات الخمس والعشرين الماضية، عمل الصليب الأحمر الكندي مع نصف مجموع المجتمعات الأصلية التي يبلغ عددها نحو 750 مجتمعاً أصلياً على نطاق البلد: أي مع 300 مجتمع أصلي تقريباً.²⁹

المبادئ الأساسية لا تقتصر أهميتها على حالات النزاع

تشير الدراسات السابقة من خارج الحركة، إلى حد بعيد، إلى تطبيق المبادئ الإنسانية أثناء حالات النزاع، أو عند ظهور مخاطر بنشوب نزاع.³⁰ إلا أنه، بالنسبة للحركة، تكتسي المبادئ الأساسية أهمية في حالات النزاع وفي غير حالات النزاع على حد سواء. بل تثبت أهميتها لكل الجمعيات الوطنية، سواءً تلك التي تتصدى لقضايا العنف أو الهجرة أو زيارات السجون أو الحد من مخاطر الكوارث أو غيرها من المسائل المختلفة. وتثبت أهميتها كذلك لدى وضع النهج المميز والموقف الفريد للجمعية الوطنية المعنية. كما تعمل على ربط أي برنامج محدد بالحركة الأوسع، بتاريخها ونهجها وسمعتها التي اكتسبتها في مجال العمل الإنساني بوصفها جهة غير متحيزة وحيادية.

ويعمل الصليب الأحمر الأسترالي على رصد الأوضاع في مرافق الاحتجاز الخاصة بالمهاجرين في أستراليا لأكثر من 20 سنة. ويوفر عملية مستقلة لرصد الأوضاع الإنسانية ويتواصل مع وزارة الهجرة والحكومة الأسترالية في إطار من السرية لضمان احترام كرامة المحتجزين وصحتهم ورفاهيتهم. والهدف من ذلك هو الحد من الضرر الواقع على الأشخاص المحتجزين وزيادة صمودهم، لا سيما الفئات الأشد ضعفاً بينهم.

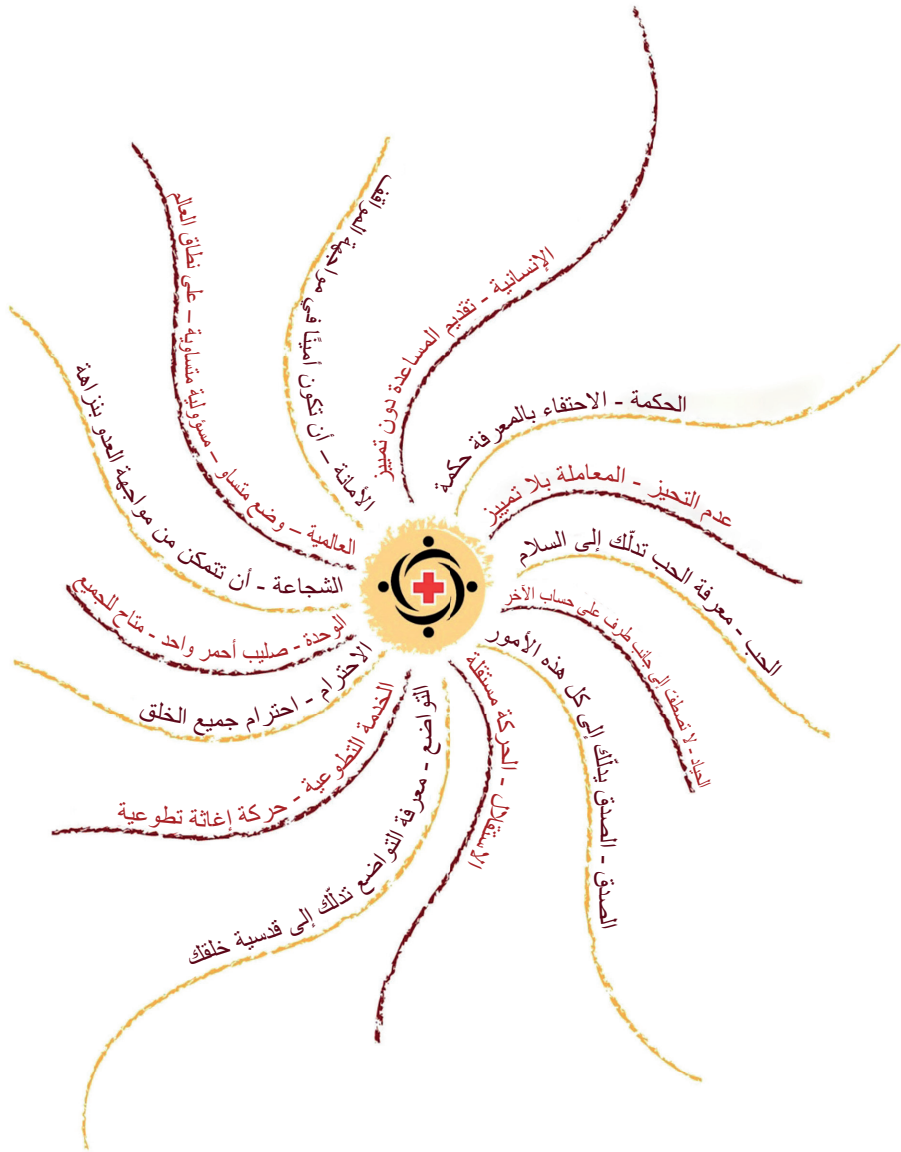
ويعد الصليب الأحمر الأسترالي المنظمة المستقلة الوحيدة التي تزور جميع مرافق الاحتجاز كل ثلاثة أشهر على الأقل. واستناداً إلى عملية الرصد هذه، يثير الصليب الأحمر الأسترالي شواغل إنسانية، فردية كانت أم عامة، عند لقائه السلطات. ولمناقشة القضايا الحساسة بشكل صريح وبناء، يخرط الصليب الأحمر الأسترالي مع السلطات في إطار من السرية.³¹

ووصف أحد الموظفين السابقين في الصليب الأحمر الأسترالي المبادئ الأساسية بأنها مهمة للغاية فيما يتعلق بكيفية تقديم عمل الصليب الأحمر الأسترالي؛ إذ إنها تشرح أسباب زيارة الصليب الأحمر لمراكز احتجاز المهاجرين مع عدم اتخاذ أي موقف سياسي حيال ذلك في الوقت ذاته. فمن دون المبادئ الأساسية، يمكن أن يشوب التحيز المعلومات المستقاة من زيارات السجون هذه.

29 المرجع السابق.

30 على سبيل المثال، انظر «إ. مك دونالد» و«أ. فالنيتسا»، الحاشية 21 أعلاه.

31 انظر



الشكل 1: اللون على الإنترنت. طباعة الوران

الشكل 1: المبادئ الأساسية ومبادئ المجتمعات الأصلية. المصدر: الصليب الأحمر الكندي، كتيب صادر عن مشروع Respected.

نحن نختلف عن غيرنا من الجهات التي تجري زيارات إلى مرافق احتجاز المهاجرين لتقديم الدعم القانوني أو الرعوي أو الدعوة والمناصرة. نتحدث مع الجميع؛ مع المحتجزين وموظفي السجون على حدٍ سواء. ونظل محافظين على استقلالنا وحيادنا بالتركيز على رفاهية المحتجزين وكرامتهم... فيجب أن يبقى تحليلك مستقلاً. والمبادئ الأساسية هي التي تثبت أقدامك وتساعدك على اتخاذ الإجراء الأنسب في ظل تلك الظروف، وتحد من قدرة أي فرد على التأثير عليك.

وقد تتسبب الانفعالات المصاحبة للحالة في تحديات صعبة. ومن واقع خبرتي، أرى أن
المبادئ الأساسية تساعد في السياقات التي يمكن أن تكون سياسية ونافعالية.³²

ويساعد هذا الوضع الصليب الأحمر الأسترالي على الوصول- على أساس متواصل- إلى مرافق
الاحتجاز مع إثارة الشواغل على نحو منتظم بشأن أفراد محددین أو بشأن قضايا عامة. ولا تتمتع أي
منظمة أخرى بهذه الإمكانية أو هذا الوضع الفريد.

وتوفر المبادئ الأساسية للموظفين والمتطوعين المفردات اللغوية والأساس المنطقي اللازمين
للحفاظ على تركيز البرامج على أشد الفئات استضعافاً، رغم ما يتعرضون له من توترات أو ضغوط
للقيام بغير ذلك. ففي كينيا، اشتهر عمل الجمعية الكينية للصليب الأحمر في عموم البلد وعلى المستوى
الدولي. حيث تعيش مجموعات عرقية من المزارعين، في دلتا تانا (مقاطعة الساحل)، جنباً إلى جنب
مع مجموعات البدو في أراض شبه قاحلة ومعرضة للجفاف. وقد أدى النزاع على استخدام الأراضي
وموارد المياه الذي اندلع في آب/ أغسطس، وأيلول/ سبتمبر 2012 إلى مقتل 200 شخص تقريباً
وإصابة تسعين آخرين. ونزوح أكثر من 34,000 شخص عن منازلهم.³³ فاجرى الصليب الأحمر
الكيني عمليات استجابة طارئة، غير أن موظفي الصليب الأحمر ومتطوعيه كانوا يدركون أن إعادة
المجتمع لحالة السلام تحتاج إلى بذل المزيد. وعمد مراقبون أكاديميون خارجيون إلى توثيق النظرة
إلى الصليب الأحمر الكيني باعتباره «وسيطاً أميناً» يسعى إلى المساعدة في خفض العنف الأهلي.³⁴
وشكلت المبادئ الأساسية نقطة الانطلاق لوضع برامج جديدة في مجال منع العنف وتسوية
النزاعات. وكان من الضروري ضمان أن تلمس المجتمعات المنقسمة بنفسها أنه لا تتم محاباة أي
طرف على حساب الآخر:

بدأت كل الجلسات بالتعريف برسالة الصليب الأحمر ومبادئه الأساسية. فقام متطوعون على
المستوى القاعدي بنشر هذه المعلومات باللغة المحلية وبمفاهيم محلية. وبقدر الإمكان، عمدنا إلى
توفير خدمات متساوية لجميع الأطراف على أساس الحاجة.

وإن حاول البعض الحصول على خدمات تفضيلية أو معاملة خاصة، كنا نعود إلى المبادئ
الأساسية. ثمة أمور لا يمكننا أن نقوم بها بوصفنا الصليب الأحمر الكيني. فنحن منظمة إنسانية،
نستند إلى هذه المبادئ الأساسية. هي ما نسترشد بها، ولا يمكن أن نخالفها.³⁵

وبهذه الطريقة، تعمل المبادئ الأساسية على تسليح الموظفين والمتطوعين بالردود التي يمكنهم
استخدامها إذا ما وجهتهم تحديات. وخلص التقرير النهائي للمشروع في إطار البرنامج الكيني إلى أن
المشروع المصمّم- استناداً إلى المبادئ الأساسية- نجح إلى حد بعيد في تخفيف أثر الدوافع الرئيسية
للنزاع في المجتمع.³⁶

32 مقابلة مع مراقب سابق للأوضاع الإنسانية في الصليب الأحمر الأسترالي، لندن، كانون الثاني/ يناير 2015.

33 «س. هوغيرغ»، الحاشية 13 أعلاه؛ «غ. سينغ»، الحاشية 13 أعلاه.

34 مركز فاينشتاين الدولي وآخرون، الحاشية 13 أعلاه.

35 مقابلة مع عضو من الصليب الأحمر الكيني، أيلول/ سبتمبر 2015.

36 «س. هوغيرغ»، الحاشية 13 أعلاه.

التحديات التي تواجه الحياد

الحياد مهمة شاقة للغاية. عليك أن تعمل عملاً جنونياً لترسيخه والحفاظ عليه.³⁷

ولا تزال ثمة حالات قائمة في الأزمات الإنسانية الحالية تُقَدِّم فيها أطراف وطنية أو محلية على مهاجمة العاملين في مجال الإغاثة، أو ارتكاب انتهاكات لحقوق الإنسان في صفوف السكان، أو تقييد الإغاثة الإنسانية لتحقيق مكاسب شخصية. وتظل المبادئ الأساسية تمثل أساساً عملياً لإنشاء الحيز الإنساني والحفاظ عليه واستعادته خلال العمليات.

وتُظهر الأمثلة المستمدة من الجمعيات الوطنية أن هذا ليس مجرد كلام أجوف؛ فترجمة الأقوال إلى أفعال واتخاذ القرارات على أساس المبادئ التوجيهية أمر بالغ الأهمية. وعند اعتماد النهج الصحيح، يمكن تحقيق نتائج مذهلة على مستوى الوصول والقبول.

وفي الصومال، تمثل جمعية الهلال الأحمر الصومالي (أو أوراكا بيشا كاس) المنظمة الوطنية الوحيدة التي يمكنها الوصول إلى جميع أنحاء البلاد. ويكفل هذا الحضور الواسع النطاق أن لا تحصل أي مجموعة سياسية أو عشيرة معينة على ميزة تفضيلية للاستفادة من المساعدات. ويتمنع الهلال الأحمر الصومالي بسمعة طيبة تتمثل في قدرته على الوصول وعدم تحيزه، اكتسبها خلال تسعينات القرن الماضي. فخلال هذه الفترة، كان الهلال الأحمر الصومالي، بالتعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر، يعملان على توفير المساعدات الغذائية لأكثر من مليون شخص، إلى جانب توفير أغذية مطهّوة لما مجموعه 60,000 شخص آخرين.³⁸ ويشمل عمله اليوم إجراء الاستجابة الإنسانية السريعة إلى جانب توفير الخدمات الصحية وتعزيز القانون الإنساني الدولي والبحث عن المفقودين والحد من مخاطر الكوارث. ويتعزز عدم الانحياز عن طريق الابتداء بإقامة التوازن في تمثيل العشائر في هيكل قيادته وموظفيه.

ويرد العمل المتعلق بالترويج للمبادئ الأساسية في وثيقة بعنوان «بارا مي جفدو»، ومعناها «الإفلات من الرمح». وتستخدم كل من «اللجنة الدولية» والهلال الأحمر الصومالي هذه الوثيقة لنشر مبادئ القانون الإنساني الدولي والمبادئ الأساسية. وقد استلهمت في إنتاج أعمال درامية وعقد اجتماعات مائدة مستديرة ومناقشات تستهدف الشباب والضالعين بصورة مباشرة في صدامات مسلحة على وجه التحديد.

وشهدت مستشفى كيزاني في مقديشيو أحد أمثلة تحدي المبادئ الأساسية. إذ يعمل الهلال الأحمر الصومالي بكد لكفالة حياده رغم سنوات النزاع والاضطرابات الصعبة. ففي إحدى المناسبات، استخدم سطح المستشفى كنقطة عسكرية لمدة عشرين يوماً ولم يتسن إخلاء جميع المرضى من المستشفى. وظل موظفو الهلال الأحمر الصومالي مع المرضى رغم ما تهددهم من مخاطر بالغة. وعملوا على ضمان عدم تفتيش الجنود للمرضى رغم الضغوط الكبيرة التي تعرضوا لها من الأطراف المتحاربة. وقد أسهم الإعلان عن حياد المستشفى على الإذاعة في زيادة ثقة المجتمع ودفع السكان إلى طلب العلاج في المستشفى. ومع تغير السلطة في مقديشيو أكثر من مرة من منتصف الألفينات حتى أواخرها، ظل المستشفى يحتفظ بطابعه الحيادي وإن بشق الأنفس.³⁹

37 موظف سابق في قسم إدارة الكوارث بالاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، جنيف، كانون الأول/ديسمبر 2014.

38 «س. أوكالاغن» و«ل. ليتش»، الحاشية 7 أعلاه.

39 المرجع السابق.



الشكل 2: اللون على الإنترنت. طباعة الورق

الشكل 2: المبادئ الأساسية باللغة الصومالية. المصدر: «سورتشا أوكالاغن»، الصليب الأحمر البريطاني.

وتُظهر المقابلات التي أُجريت مع موظفين ومتطوعين وأعضاء من الصليب الأحمر العاملين في الصومال أن قيادة الجمعية تمثل عنصرًا رئيسيًا في استمرار نجاحها، استنادًا إلى المبادئ الأساسية. ومع إشراك طائفة متنوعة ومتوازنة من العشائر في هيكل القيادة، يتعزز مبدأ الحياد حتى وإن تجاوزت أطراف النزاع بعض الحدود. فضلًا عن ذلك، تحتفظ القيادة الوطنية التي تتسم بالقوة وحسن التمثيل بصلات مع مديري الفروع المحلية الذين يتمتعون بدورهم بصلات جيدة بأطراف أخرى، يستظلون في ذلك جميعًا بمظلة المبادئ الأساسية. ويسمح ذلك للمنظمة بأن تصف نفسها بأنها «منظمة وطنية تتمتع بالحياد السياسي... ومن ثم، تميز نفسها عن جميع المنظمات الأخرى العاملة في المجال الإنساني في الصومال»⁴⁰ ويمكن ذلك الجمعية من تحقيق الوصول لدى طائفة متنوعة من الجماعات في جميع أنحاء البلد والحفاظ على هذه القدرة، بخلاف أي منظمة وطنية أخرى (يظهر الشكل 2 المبادئ الإنسانية باللغة الصومالية وترجمتها باللغة الإنجليزية).

وتوفر أوغندا مثالاً آخر على أهمية المبادئ الأساسية عندما يتعرض حياد المنظمة لتحديات. ففي هذا البلد، هاجمت جموع غاضبة في عام 2009 عربتي إسعاف تابعتين للصليب الأحمر⁴¹ وأسفرت عملية التحليل التي أُجريت بعد وقوع الحادث عن استنتاج مفاده أن الجموع إما أنها اعتبرت الصليب الأحمر الأوغندي جزءًا من الحكومة، أو لسبب ما لم تعتد بحماية عربات الإسعاف أو بشعار الصليب الأحمر⁴².

وفي الأشهر والسنين التالية للحادث، بذلت قيادات الصليب الأحمر الأوغندي جهودًا مميزة لتعزيز نشر المبادئ الأساسية ومهام الصليب الأحمر والإعلام عنها. كما ركزت على بناء قدرات الجمعية للتعامل مع حالات العنف المحتمل في مواجهة الانتخابات والنزاعات في المستقبل. وطوّرت قدرات تحليلية هائلة للنظر في «النقاط الساخنة» السياسية، واستثمرت في تعيين موظفين ومتطوعين وتدريبهم على المبادئ الأساسية وتحليل النزاعات ورسم السيناريوهات. ونقلت رسائل من هذا القبيل

40 المرجع السابق، الصفحة 18.

41 انظر:

<https://www.icrc.org/ara/assets/files/2013/safer-access-selected-experience-uganda.pdf>.

42 كل جمعية وطنية تحمل التزامًا بتعزيز حماية شعار الصليب الأحمر. للحصول على مزيد من المعلومات، يرجى الاطلاع على الموقع الإلكتروني التالي:

<http://www.redcross.org.uk/About-us/Who-we-are/The-international-Movement/The-embem>.

إلى المجتمعات المحلية والسلطات والقادة السياسيين المحليين. وخصَّ موظفو المستشفيات باعتبارهم عناصر بالغة الأهمية نظرًا لقدرتهم على ضمان التعامل مع الحالات المحالة بلا تحيز، مع التركيز على من هم في أشد الحاجة للرعاية.⁴³

وزادت الجمعية من جهودها الإعلامية، بوسائل منها استخدام الراديو والتلفزيون، بهدف نقل معلومات واضحة بشأن المبادئ الأساسية، وأغراض الصليب الأحمر الأوغندي، والوظيفة الفريدة والحماية للشعار. وتمثل الهدف من هذه البرامج- تحديداً- في التواصل مع طائفة من الأشخاص الذين يُحتمل ضلوعهم في العنف، أو أولئك الذين تنقلوا بين النشطاء السياسيين. ووصف أحد الزملاء الوضع قائلاً: «رأينا أنكم تحتاجون إلى استهداف أشخاص يتنقلون من مكان إلى آخر، أشخاص يتحدثون... كقائدي الدراجات النارية. فإن أقنعتم قلة منهم، أقنعتم الكثيرين، ذلك إن أوصلتم رسائلكم على النحو الصحيح».⁴⁴ وأثبت تقييم نهائي لهذا البرنامج أن الحملة الإعلامية هذه مكّنت الصليب الأحمر الأوغندي من ضمان الوصول الآمن والعمل إلى حد بعيد دون إعاقة بسبب الهجمات أو أي ارتباك بشأن دوره.⁴⁵ وأسهمت الحملة- التي استندت إلى المبادئ الأساسية - في تغيير الحال من انعدام الاحترام والحماية كما كان في وقت سابق، وأتاحت للصليب الأحمر الأوغندي الوصول إلى أشد الفئات ضعفاً أثناء حالات العنف.

وتظهر أهمية المبادئ الأساسية لأي جمعية وطنية يتعين عليها إعادة ضبط أوضاعها أو تعديلها في مواجهة التحديات. وفي بعض البلدان، يتطلب ذلك تحولاً استراتيجياً مقصوداً نحو الوضوح، استناداً إلى المبادئ الأساسية. وفي السويد، شرعت قيادة الصليب الأحمر السويدي في مبادرة على نطاق الجمعية لنشر المبادئ الأساسية. ووضع هذا العمل وكذا نهج الجمعية المنشط إزاء المبادئ على المحك في أعقاب حادثة وقعت في نيسان/ أبريل 2014، عندما صُوِّر أحد المتطوعين في الجمعية وهو يعامل أحد عملاء مكتب الصليب الأحمر السويدي بعدم احترام بسبب خلفيته العرقية. ونُشر هذا الفيديو على ملاء الشبكات الاجتماعية وتساعد الشجب ضد المنظمة. ولئن أبدت قيادة الجمعية أسفها عن الأفعال التي أتى بها المتطوع، فقد أعربت عن سخطها لخروج هذه الصور على الملأ؛ وشكّل هذا الموقف زخماً مهمّاً لتغيير التركيز لينصب على المبادئ الأساسية وما تعنيه هذه المبادئ بالنسبة لسلوكيات الموظفين والمتطوعين.

وتنظّم الخطة الاستراتيجية الخمسية الجديدة للجمعية وفقاً للمبادئ الأساسية، بحيث تُستخدَم بشكل مباشر في تشكيل جميع البرامج المحلية والدولية للفترة 2016-2019.

وترغب قيادة المنظمة في أن يكون الصليب الأحمر السويدي حيزاً آمناً ومحايلاً وغير منحاز. يأتي ذلك في مواجهة تصاعد كراهية الأجانب والتعبير عن الغضب العام نحو اللاجئين والمهاجرين فيما يصفونه بأنه تغيير لطابع بلدهم.⁴⁶ وبذل الصليب الأحمر السويدي جهوداً لزيادة الوصول لدى جماعات المهاجرين واللاجئين، لا سيما تعزيز الخدمات بتقديم الإسعافات الأولية في المجتمعات التي قد لا تتمكن من الحصول على التعليم بطريقة أخرى. فخلال أحداث الشغب أو الاضطرابات، قد تصبح الإسعافات الأولية بالفعل مهارةً لإنقاذ الحياة. ويسهم ذلك أيضاً في الوصول إلى المتطوعين المحتملين من هذه المجتمعات، وهو ما يمكن أن يفضي إلى إنشاء حراك إيجابي وتغيير التصورات عن الصليب الأحمر السويدي بمرور الوقت، مما يزيد من قبوله ووصولهِ.⁴⁷

43 «أ. غالبرين»، الحاشية 14 أعلاه.

44 مقابلة مع زميل من الصليب الأحمر، 2012. مقتبس في دراسة «إ. كايانز» و«ب. بايزان» و«س. كارننتر»، الحاشية 14 أعلاه، الصفحة 34.

45 «أ. غالبرين»، الحاشية 14 أعلاه.

46 مقابلة مع قيادة الصليب الأحمر السويدي، استكهولم، تشرين الأول/ أكتوبر 2014.

47 مقابلة مع موظفي الصليب الأحمر السويدي، تشرين الأول/ أكتوبر 2014.

وتمثل برامج دعم اللاجئين وسيلة مهمة للغاية للترويج للمبادئ الأساسية، لا سيما مبدأ الإنسانية. ويصف أحد اللاجئين السابقين من المغرب، الذي يعمل في الوقت الحالي متطوعاً مع الصليب الأحمر السويدي، هذا المبدأ على النحو التالي:

ما الذي تعنيه المبادئ الأساسية بالنسبة لي؟ تعني الإنسانية والتسامح والتراحم والدعم وحسن التقدير والعالمية. فعندما تصل لأول مرة إلى بلد ما كلاجئ، تشعر بالوحشة. لا تملك من متاع الدنيا شيئاً، ولا حتى الملابس... الصليب الأحمر يعني احترام الفرد بصرف النظر عن الظروف.⁴⁸

وفي السويد، قد يؤدي تطبيق المبادئ الأساسية في عموم المنظمة إلى تحسين الوصول إلى المجتمعات في مواجهة أي اضطرابات حضرية محتملة في المستقبل. كما يسهم في رفع معنويات الموظفين والمتطوعين الحاليين وزيادة تركيزهم، مستلهمين في ذلك قوة قيادتهم.⁴⁹

أهمية القيادة

كما اتضح في الحالات الصومالية والأسترالية والكندية، لا يتحقق الوصول المناسب بسهولة. فيجب أن تتوفر توجيهات واضحة من أعلى، وفي عموم المنظمة، للالتزام بالمبادئ الأساسية من أجل تحقيق الوصول وزيادته.

ويتطلب وضع استراتيجية متأنية لتمكين الموظفين والمتطوعين من الوصول والحفاظ على مستوى من السلامة والأمن إجراء أعمال تحضيرية استناداً إلى المبادئ الأساسية. وهذا هو النهج المتبع في القيادة العليا للصليب الأحمر السويدي، وتاريخياً في الصليب الأحمر الكندي، لتحسين الوصول والقبول في الوقت الحالي وفي المستقبل. وينبغي أن لا يتم التقليل من أهمية الشجاعة الإدارية لتوجيه هذا النوع من العمل. ففي المجتمعات التي تمر بنزاع أو في مرحلة ما بعد النزاع تحديداً – ولكن ليس على سبيل الحصر – تظهر التجربة أن هذا النوع من العمل لا ينشأ من قبيل الصدفة. وقد استُمد نمط الوصول والتفاوض والقبول في عموم الحركة، وإن ظل غير كامل أو موحد، من الجهود الرامية إلى استخدام المبادئ التوجيهية وإظهارها والالتزام بها.

ويأتي قادة الحركة من جميع الخلفيات والقناعات؛ إلا أن بعضهم لم يُظهر القدرة اللازمة على الإلهام.⁵⁰ ولئن كانت جميع الجمعيات الوطنية تعد كيانات قانونية وفقاً لاتفاقيات جنيف وقانون الصليب الأحمر في التشريعات الوطنية لبلدانها، تقدم الحكومات الممسكة بالسلطة على تعيين بعض قادتها، وهو ما يشكل تحدياً لفهم وتصوير مبدأ الاستقلال. ويتطلب تنفيذ الدور المساعد الذي يقتضيه النظام الأساسي للحركة إقامة توازن دقيق. وغالباً ما يمثل عملية تفاوض صعبة تحتاج فيها السلطات في مختلف مستويات الحكم إلى فهم دور الحركة والتزاماتها فهماً عميقاً، لا سيما فيما يتعلق بالمبادئ الأساسية.⁵¹

48 مقابلة مع متطوع ولاجئ لدى الصليب الأحمر السويدي، استكهولم، تشرين الأول/أكتوبر 2014. ترجمتها مؤلفة المقال من الفرنسية.

49 مقابلات مع موظفين في مقر الصليب الأحمر السويدي، استكهولم، تشرين الأول/أكتوبر 2014.

50 يتبقى سؤال لم تتم الإجابة عليه عما إذا كانت الجمعيات الوطنية قد انتهكت المبادئ الأساسية، وإن كان فإلى أي مدى. غير أنه نادراً ما توثق هذه الحالات وبالتالي فهي تخرج عن نطاق هذا المقال.

51 الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر بالتشاور مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر، *National Red Cross and Red Crescent Societies as Auxiliaries to the Public Authorities in the Humanitarian Field: Conclusions from the Study Undertaken by the International Federation of the Red Cross and Red Crescent Societies*، المؤتمر الدولي الثامن والعشرين للصليب الأحمر والهلال الأحمر، 2-6 كانون الأول/ديسمبر 2003، يمكن الاطلاع عليه على الموقع الإلكتروني التالي:

www.icrc.org/eng/resources/documents/misc/5xrfbm.htm.

وأوضح أحد قادة الجمعيات الوطنية في الشرق الأوسط أن مقاومة مطالب أحد الأشخاص الممسكين بالسلطة تستلزم أن يكون عمل الجمعية مقبولاً لدى المتطوعين. فهم إن لم يقتنعوا بأن العمل يلبي المبادئ الأساسية، لا سيما من حيث كونه غير متحيز وقائماً على الحاجة وليس على القرارات السياسية ومحاولات كسب الود، فلن يتمكن القائد من قيادتهم.⁵² ويسهم مبدأ الخدمة التطوعية هنا في ضمان الالتزام بمبدأي الاستقلال وعدم التحيز.

تأزر جميع المبادئ الأساسية السبعة

على عكس المنظمات الأخرى العاملة في الحقل الإنساني، تعتمد الحركة على المبادئ الثلاثة الأخيرة المتمثلة في الخدمة التطوعية والوحدة والعالمية والتي تحدد طريقة عملها بشكل ما. فتعمل هذه المبادئ الثلاثة على ربط العمل على النطاقات المحلية والوطنية والدولية. وبطريقة ما، يعبر عمل المتطوعين البالغ عددهم 17 مليون متطوع عن الحركة؛ وبعد ربط جميع المبادئ الأساسية ببعضها إحدى الطرق التي تكفل الحفاظ على الروح المعنوية لهؤلاء المتطوعين وعلى أدايتهم.

وتضطلع جمعية الصليب الأحمر اللبناني بدور ريادي في الحركة لما تقوم به من ممارسات ابتكارية تكفل التزام الموظفين والمتطوعين بالمبادئ الأساسية، بما يضمن إمكانية الوصول. وتحظى الجمعية الوطنية داخل لبنان بشهرة في جميع أرجاء البلد باعتبارها جهة نشطة وغير متحيزة لتوفير الخدمات الطارئة. وتدير الجمعية حالياً خدمة الطوارئ الوطنية الوحيدة المتوفرة، وتضم أسطولاً من 270 سيارة إسعاف و45 محطة إسعاف يعمل بها نحو 2700 متطوع. ولا يأتي ذلك دون تحديات جسيمة، لا سيما فيما يتعلق بتشغيل خدمة طوارئ تقوم على المتطوعين على مدار الساعة.⁵³ غير أن العمل الذي ما فتى الصليب الأحمر اللبناني يضطلع به لعقود وضعه في مكانة مرموقة للغاية.

وخلال الحرب الأهلية، تمكّن الصليب الأحمر اللبناني من العمل عبر خمسين «نقطة حدودية» داخلية مختلفة. وتمكن، ولا يزال، من الوصول إلى مناطق لم تتمكن الهيئات الحكومية من الوصول إليها، كما يعد المؤسسة الوطنية الوحيدة التي تتمتع بنطاق الوصول هذا.⁵⁴ ولا يزال يشتهر بأنشطته وحياده.

52 حسبما تم إطلاعنا عليه في حلقة العمل الإقليمية التي استضافتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر / الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، بعنوان «إعادة التأكيد على المبادئ الأساسية: مبادرة على نطاق الحركة»، بيروت، آذار/ مارس 2014.

53 «سورثشا أوكالاغن» و«ليزلي ليتش»، *Principles in Action in Lebanon*، الصليب الأحمر البريطاني والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر والصليب الأحمر اللبناني، 2012، الصفحة 14.

54 المرجع السابق، الصفحة 15.

ولعل إحدى الطرق التي يكفل بها الصليب الأحمر اللبناني حياده تتمثل في عملية التوظيف الجادة والمستمرة التي يجريها استناداً إلى المبادئ الأساسية. فخلال عملية التوظيف، يُقسّم المتطوعون على الحياض ويوقعون على ذلك، ويتم التحقق من خلفياتهم في المجتمع المحلي المعني لكفالة حيادهم السياسي. ويخضع الموظفون الجدد للإرشاد لفترة سنة قبل توزيعهم.

ونظراً للطابع الديني للنزاع والانقسامات القائمة داخل المجتمع اللبناني، يتخذ الموظفون والمتطوعون، بمجرد بدء العمل، كني ليس لها أي مدلول ديني أو ثقافي تعزيراً للحياض. ولا يُسمح بأي مناقشات سياسية في محطات الإسعاف، لدرجة أنه في بعض المحطات تُغلق المحطات الإخبارية للحيلولة دون حدوث أي ردود فعل قوية حيال الإعلام. ويمثّل الموظفون والمتطوعون جميع طوائف المجتمع اللبناني الثماني عشرة المختلفة، مع وجود تمثيل قوي للرجال والنساء على حد سواء في الأفرقاء.⁵⁵

وأقدم الصليب الأحمر اللبناني على تسجيل خبرات الموظفين والمتطوعين في منشورات صدرت بالتعاون مع «اللجنة الدولية» والصليب الأحمر البريطاني. ويقّدي كثير من الجمعيات الوطنية الأخرى، بما في ذلك موظفو «اللجنة الدولية»، في المنطقة وغيرها بالنموذج اللبناني، بل وتحاكي هذه الجمعيات بعض عناصر عمل الصليب الأحمر اللبناني في تطبيق المبادئ الأساسية. ومع ذلك، لا توجد سوى وثائق محدودة للغاية عن هذا العمل وعن الابتكارات اللازمة لتنفيذه وفقاً للمبادئ الأساسية. ويُعتقد أنه في ضوء العدد الحالي للجمعيات الوطنية البالغ 189 جمعية، قد يكون ثمة عدد أكبر بكثير للابتكارات التي يجري تجربتها حالياً. وحتى الآن، لم تنجح الحركة كثيراً في رصد الدروس المستخلصة وحفظها وتبادلها بطرق من شأنها أن تعزز الممارسات الفضلى في الشبكة الأوسع. ويشكل هذا المقال محاولة لتحقيق ذلك.

صنع القرار استرشاداً بالمبادئ الأساسية

لا يكفي مجرد التحدث عن مبدأ الإنسانية بأسلوب مبهم. فاليوم، ينبغي للأطراف الفاعلة في الحركة الوصول إلى بيانات موثوقة وعالية الجودة لاتخاذ قرارات قوية. وكما ورد نقاشه أعلاه في حالات الصومال وأوغندا والسويد، يمكن أن تطرأ تغييرات على السياق وعلى الجهات المسكبة بالسلطة في أي حالة. وفضلاً عن ذلك، يتطلب تقديم خدمات مناسبة ترقى إلى مستوى التحديات أن تركز الجمعيات الوطنية على الفئات الأكثر ضعفاً كطريقة للبرهنة على عدم تحيزها. وهذه ليست مجرد عملية لإطلاق التعميمات والافتراضات. بل تعتمد على التواصل مع طائفة من الأطراف المعنية في فئات مختلفة في المجتمع، وإجراء فحص وافٍ للمعلومات ذات الصلة، وعملية تحليل سياق ممتازة، مع إعادة النظر فيها على أساس منتظم.

وكما رأينا في المثال الكندي أعلاه، قد يسهم إجراء عملية جيدة لتقييم مواطن الضعف والقدرات في دفع الجمعية الوطنية المعنية في اتجاه جديد ومختلف. ففي المملكة المتحدة، يعمل الصليب الأحمر البريطاني في أيرلندا الشمالية. وخلال سنوات التوتر السياسي والنزاع (التي تُعرف تخفيفاً باسم «الاضطرابات»)، عمل الصليب الأحمر عبر الخطوط الطائفية وعُرف بمبادراته الوطنية ومنها حملات التبرع بالدم والخدمات الاجتماعية والإسعافات الأولية.⁵⁶

55 «س. أوكلاغن» و«ل. ليتش»، الحاشية 7 أعلاه.

56 مقابلة مع الرئيس السابق للصليب الأحمر للنندن-ديري المسؤول عن أنشطته خلال فترة النزاع، ديري/ندن-ديري، آب/أغسطس 2014.

غير أنه في السنوات الأخيرة، ساورت فريق الإدارة في أيرلندا الشمالية مخاوف من أن التركيز على الخدمات قد لا يكون كافيًا على النحو الواجب: فيما يتعلق بالوصول إلى المجتمعات المحلية الأشد احتياجًا للخدمات، وفقًا لمبدأ عدم التحيز. وقام الفريق بدراسة وصول السكان إلى الخدمات التي يقدمها الصليب الأحمر البريطاني، سواءً تمثلت في إنشاء مراكز إيواء طارئة أو إقراض كراسي متحركة أو توفير الرعاية في المسكن. وتطلب ذلك النظر من كثب في الإحصاءات في جميع أنحاء المنطقة، باستخدام أدوات مسح ومؤشرات مختلفة لتحديد الفئات الأشد ضعفًا. فعلى سبيل المثال، أجرى الفريق تحقيقًا في البيانات الاجتماعية والبيولوجية ذات الصلة المتعلقة بمخاطر الفيضانات ومستويات الفقر ومستويات التعليم والوصول إلى خدمات الدولة. كما تم تحديد أماكن خدمات وفروع الصليب الأحمر على الخريطة، ومدى الاستفادة منها وكيفية ذلك. وبشكل محدود ولكن مؤثر، أشارت البيانات إلى أن الصليب الأحمر يحتاج إلى اتخاذ بعض القرارات المختلفة ونقل بعض موظفيه وامتطويعه وخدماته حتى يتمكن من الالتزام بالمبادئ الأساسية. فلزم وضع سيارات الإسعاف بقرب أماكن احتياجها. وعمدت بعض الفروع إلى العمل حيثما كان لها صلة تاريخية بمتطوعين سابقين، وإن كان من الأنفع أن تعمل في مكان أقرب للمجتمعات الضعيفة.⁵⁷ وبوضع ذلك في الاعتبار، يخضع الصليب الأحمر في أيرلندا الشمالية في الوقت الحالي لمواومة موارد البشرية وأصوله بحيث تعكس على نحو أفضل متطلبات الفئات المحتاجة في المجتمع. وفضلاً عن ذلك، قررت الإدارة النظر في الملامح الديموغرافية لقاعدة الموظفين والمتطوعين؛ وكما هو الحال مع الصليب الأحمر السويدي والصليب الأحمر اللبناني، اتخذ الصليب الأحمر البريطاني خطوات هو أيضًا ليكفل أن تعكس قاعدة الموظفين لديه مختلف فئات المجتمع التي يسعى إلى مساعدتها.

وتطلبت هذه العملية شجاعة إدارية كبيرة في مجتمع لا يزال في طور التعافي من النزاع. وبالنسبة لفريق إدارة الصليب الأحمر في أيرلندا الشمالية، أثار مجرد الشروع في عملية إعادة تركيز عمله على أساس المبادئ الأساسية مشاعر ألم بالغة لدى بعض الموظفين الذين ينظر كثير منهم إلى الصليب الأحمر باعتباره ملاذًا حياديًا لا تنعكس فيه الانقسامات الدائرة في المجتمع. وللحفاظ على الموظفين والمتطوعين في الفريق، ولتعزيز تنوع الموظفين في المستقبل، ظلت المبادئ الأساسية تمثل أدوات صنع القرار والتواصل.

وتحدثت عملية الموازنة مع المبادئ الأساسية أثرًا حقيقيًا على إمكانية الوصول، وإن كان على نطاق صغير. فعلى سبيل المثال، تعد مدينة ديربي/ لندن- ديربي مدينة منقسمة نسبيًا بين مجموعات مختلفة من السكان.⁵⁸ ولا يزال النشاط السياسي نابضًا في هذه المدينة، حيث تُلون رسومات الجرافيتي جدرانها وأثارها بألوان طائفية. ويوفر الصليب الأحمر خدمة الموائد المتنقلة المجانية التي تخدم الفئات الضعيفة من السكان بما في ذلك السكان الذين خرجوا لتوهم من المستشفى وكبار السن. ويعبر المتطوعون لهذه الخدمة حدودًا، بالمعنى الحرفي للكلمة، داخل المدينة لمدة أربعة أيام كل أسبوع.

ويتطلب الحفاظ على وضع حيادي والتركيز على عدم تحيز الخدمات بقضة دائمة من جانب المديرين وكذلك الموظفين والمتطوعين وسط مجتمع منقسم. ويؤكد أي تحليل سياقي جيد أن المجتمع أخذ في التغيير، فثمة عمليات سياسية جارية حاليًا، وربما يكون للسكان آراء متباينة للغاية حتى داخل المجتمع المحلي الواحد. وقد وصف أحد أعضاء فريق الصليب الأحمر الحبل المشدود الذي يتعين على الموظفين والإدارة السير عليه قائلاً:

57 مقابلة مع فريق الإدارة في أيرلندا الشمالية، بلفاست، آب/ أغسطس 2014.

58 على سبيل المثال، لا يتفق السكان على اسم واحد لمدينتهم: بعضهم يطلق عليها اسم ديربي، والبعض الآخر يطلق عليها لندن- ديربي. فتحمل علامات الطرق المؤدية إلى المدينة كلا الاسمين.

ينبغي أن تتجنب الطائفية. نروج لعملنا باعتباره عملاً مبدئياً ومهماً لجميع فئات السكان في الوقت الحالي، وليس فقط لمجتمعين اثنين مختلفين، بل وللغئات المختلفة داخله، مثل ذوي الإعاقة وكبار السن وأولئك الذين يعانون من مشكلات إدمان الكحول، وما إلى ذلك.⁵⁹

ووصف عضو آخر في الفريق أهمية إبداء الحياد قائلاً:

دائماً ما نراعي كل ما يحيط بنا.. عليك دائماً أن تتوقع اتهامات بالمحاباة. فالساسة دائماً ما يتصيدون لك شيئاً لاتهامك به. البعض يلقي علينا اتهامات طائفية وفقاً لسياساتهم. وبعدها تضطر أن تفعل المستحيل لإثبات أنك لست طائفيًا، وأنك تمثل مجموعة مختلطة من البشر.⁶⁰

وهذا العمل شاق ودقيق، وله تأثيره على الموظفين. إلا أنه يؤدي ثماره عند تحقيق الوصول. فذكر أحد منسقي المتطوعين أن المتطوعين من رجال الشرطة المتقاعدين يتمتعون بقدرة أكبر على الوصول إلى أجزاء مختلفة من المدينة بوصفهم متطوعين في الصليب الأحمر أكثر مما سنج لهم خلال تاريخهم المهني الطويل في مناصب الدولة.⁶¹

التدريب على المبادئ الأساسية

يتطلب توفر موظفين ومتطوعين قادرين على العمل واتخاذ القرارات وفقاً للمبادئ الأساسية تدريباً نشطاً وذا صلة ومراجعة الموضوع بصفة منتظمة. ولم يثبت نجاح الاعتماد حصراً على استخدام المبادئ في إطار تقديم موظفي المنظمة إلى المجتمع؛ فظهر الدروس المستخلصة من السياقات المختلفة أن الرجوع إلى المبادئ الأساسية قبل وأثناء وبعد وقوع الأزمة يزيد المنظمة قوة ويجعل المتطوعين والموظفين أكثر تركيزاً.

واضطرت جمعية الصليب الأحمر في جنوب أفريقيا للعمل على تعزيز القبول وبناء القدرات بغية التغلب على تاريخ اعتقد فيه أن المجتمع لم يوفر الدعم بما فيه الكفاية لمناهضة سياسة الفصل العنصري قبل تسعينات القرن الماضي. وبدأت الجمعية في بناء سمعتها عن طريق توفير الإسعافات الأولية وإجراء عمليات الإخلاء الطارئة في عامي 1993 و1994، وخلال المظاهرات والاحتجاجات السياسية طوال ذلك العقد. ومع اندلاع العنف المتصل بكرة الأجانب في عام 2008، سارعت الجمعية بتعبئة الموظفين والمتطوعين والإمدادات الإغاثية. وبالبناء على العلاقات القائمة، المستندة إلى الأداء السابق، أمّن الوصول عن طريق إشراك المجتمعات المحلية المختلفة في عملية تحديد الحلول وتقديم الإغاثة. فضلاً عن ذلك، نظمت الجمعية برامجها لدعم مبادرات العون الذاتي وتمكين المتطوعين من المجتمعات المحلية.⁶²

ويتمثل أحد العناصر التي عُدّت رئيسية، كما ورد في استعراض للعمل في إطار مبادرة «الوصول الآمن»، في البناء على إمكانيات ومهارات الموظفين لكي يكونوا «سفراء» أقوياء للصليب الأحمر لمساعدته في اكتساب القبول. وحُدّت المبادئ الأساسية كمناسبة انطلاق مهمة لبناء هذه المهارات. واعتُبر أن تعليم المتطوعين في المجتمع المحلي على استخدام المبادئ لئلا يترشد بها في عملية صنع القرار وأنشطة الإغاثة يعد سبيلاً لإكساب المنظمات الوضع المناسب وتأمين الوصول

59 مقابلة مع موظفي الصليب الأحمر، لندن، آب/ أغسطس 2014.

60 مقابلة مع موظفي الصليب الأحمر، أوماغ، آب/ أغسطس 2014.

61 مقابلة مع موظفي الصليب الأحمر، ديربي/ لندن- ديربي، آب/ أغسطس 2014.

62 جمعية الصليب الأحمر في جنوب أفريقيا و«اللجنة الدولية»، *Safer Access in Action Case Study: South Africa*، 2013، يمكن الاطلاع عليها على الموقع الإلكتروني التالي:

<https://www.icrc.org/ara/assets/files/2013/safer-access-case-study-south-africa.pdf>.

أثناء الاضطرابات. وأظهر تجميع للدروس المستخلصة أن فهم المبادئ وإمكانية ترجمتها إلى واقع عملي في الحياة اليومية يعد أمرًا جوهريًا لنجاح هذه الاستجابة.⁶³ وتتطلب إدارة المتطوعين، لا سيما في الظروف الصعبة أو التي تنسم بالحساسية السياسية أو تأثير المشاعر، أساليب ومهارات إدارية مختلفة. ففي الصليب الأحمر الأسترالي، اعتبر استخدام المبادئ الأساسية عنصرًا محوريًا لتأمين نوع السلوك والوصول المناسبين. وعلق أحد الزملاء الذين أجريت مقابلة معهم لأغراض هذه الدراسة قائلاً:

عملت في فريق حظيت فيه بدعم كبير، فريق تميز بالالتزام الشديد بنفس النُهج والأهداف. ضم الفريق بعض المتطوعين الرائعين—متقاعدين وطلابًا وموظفين—كانوا يقطعون من وقتهم أسبوعًا كل شهر لإجراء زيارات لأماكن الاحتجاز ومنها يعودون إلى مكاتبهم لكتابة التقرير. هذا ليس بالأمر السهل للمتطوعين.

ويحتاج موظفو الصليب الأحمر والمتطوعون للتدريب على المبادئ لاكتساب فهم أعمق بشأن أهميتها وربطهم بممارسات الحركة وتاريخ عمليات الوصول. ويمكن تعلم الكثير من جلسات استخلاص المعلومات التي تُعقد بعد انتهاء الأنشطة من أجل دراسة مدى تقيّد القرارات والإجراءات المتخذة بالمبادئ.

وتمثل المبادئ جزءًا من القدرة على الإقناع الذي تحتاج أن تمارسه على الموظفين والمتطوعين في الصليب الأحمر، لإقناعهم بأهمية ما يقومون به من عمل ولو صغُر.⁶⁴

ولا يمكن تصور العمل في أستراليا دون الاعتماد على المبادئ الأساسية والالتزام بالحركة الأوسع. ويمثل تعليم المتطوعين والاستمرار في دعم عملهم باستخدام المبادئ الأساسية الطريقة العملية التي توصل إليها الأفرقاء المعنيون لاستمرار الوصول وتحمل عملهم الشاق في الأجل الطويل.

وفي آيرلندا الشمالية، عمد الصليب الأحمر البريطاني إلى ضمان أن لا يقتصر فهم المبادئ الأساسية على عقد الاجتماع الترحيبي في الأيام الأولى القليلة. فيتولى مدير الأفرقة المختلفة مناقشة المبادئ الأساسية في سياق اجتماعات شهرية للموظفين، سواء كانوا يعملون مع من يقدمون التدريب على الإسعافات الأولية، أو من يرتبون تأجير الكراسي المتحركة، أو من يقدمون الدعم للاجئين. ويكفل ذلك فهمًا جديدًا لمعنى أن تكون متطوعًا لدى الصليب الأحمر، كما يحسن القدرة على دمج المبادئ في عملية صنع القرار اليومية.

وتظهر مقابلات أجريت مع متطوعين في آيرلندا الشمالية أنهم يرون في عقد المناقشات المنتظمة حول المبادئ الأساسية أمرًا مفيدًا لتركيز عملهم وتنفيذه. ويصف أحد المتطوعين ذلك قائلاً:

مبدأ الإنسانية يعني أن تبقى الإنسانية محل التركيز. أن تعامل الناس كيفما تود أن تُعامل. هل سترضيك هذه الخدمات لو كانت أمك من ستحصل عليها؟ عليك أن تفهم أن للجميع الحق في المعاملة بكرامة واحترام.⁶⁵

63 المرجع السابق.

64 مقابلة مع مراقب سابق للشؤون الإنسانية في الصليب الأحمر الأسترالي، لندن، كانون الثاني/يناير 2015.

65 مقابلة مع متطوع لدى الصليب الأحمر البريطاني، أوماغ، آب/أغسطس 2014.

وفضلاً عن عقد جلسات إحاطة وجلسات لاستخلاص المعلومات بصفة منتظمة بشأن المبادئ الأساسية، عمد الصليب الأحمر في أيرلندا الشمالية إلى تحسين المواد التي يستخدمها لتعكس على نحو أفضل الواقع المحلي الذي يواجهه المتطوعون هناك. ففي حين يُجري الصليب الأحمر البريطاني تدريباً على المبادئ الأساسية قائماً على السيناريوهات، فقد كان ثمة رأي قوي بأن التدريب يحتاج إلى التحديث في هذا السياق المحدد لإكساب المتطوعين والموظفين مزيداً من الممارسة وإجراء مزيد من النقاش بشأن عملية صنع القرار وفقاً للمبادئ. ويظهر الشكل 3 مثلاً عن المواد الجاري استخدامها لأغراض التدريب في جميع أنحاء أيرلندا الشمالية.

وتتنطوي المبادئ الأساسية على قدرة عالية لحفز الموظفين والمتطوعين. فينجذب الموظفون إلى الحركة نظراً لما تمثله من قيم ولكيفية اضطلاعها بأعمالها. وإلى جانب توفير التدريب والعمل الشيق، يمكن أن توفر المبادئ نوعاً من الحماية أيضاً. وهو ما أفاد به متطوعون من أيرلندا الشمالية والسويد ومناطق أخرى في حديثهم مع مؤلفة المقال. ففي لبنان، وفر الصليب الأحمر اللبناني مسانداً بديلاً للتجنيد لدى الميليشيات أثناء الحرب الأهلية.⁶⁶ وفي كثير من البلدان، قد تكون ثمة ضغوط إما للتطوع أو للعمل على خطوط الانقسامات السياسية أو الاختلافات الدينية أو الانتماءات العرقية. وتساعد المبادئ الأساسية للجمعيات الوطنية على أن تكون في وضع إيجابي حيث يكون الحياد خياراً جذاباً.

العمل ضمن الحركة

يتطلب الحفاظ على الحياد والاستقلال في الحالات الحساسة اعتماد استراتيجية مقصودة بدعم من موارد الحركة وهويتها. وتكفل المبادئ الأساسية السبعة جميعها – التعامل مع هذه الحالات على نحو منهجي وعملي، بدعم من طائفة من الجمعيات الوطنية والاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر و«اللجنة الدولية». ولا تُذكر مبادئ العالمية والوحدة كثيراً في بداية النقاشات عن المبادئ الأساسية، ولكن بعد ذلك، وكما هو الحال في مبدأ الخدمة التطوعية، يتضح أن عمل الحركة لن يحقق الوصول أو الانتشار على النطاق العالمي دون هذه المبادئ. وأبدى الكنديون دعمهم للعمل الذي أجري في كينيا وتناولناه بالنقاش أعلاه. ويجري حالياً تكرار النهج الكندي إزاء المجتمعات الأصلية في السياق الأسترالي. وقدمت «اللجنة الدولية» الدعم لبرنامج أيرلندا الشمالية، بما في ذلك من خلال إجراء زيارة حديثة إلى كوسوفو وصربيا للتواصل مع الجمعيات الوطنية العاملة في هذين السياقين. وتمثل «اللجنة الدولية» داعماً قوياً للجمعيات الوطنية العاملة في حالات النزاعات وسائر حالات العنف، حيث أسهمت «اللجنة الدولية» في تيسير أو دعم الأعمال المشار إليها في هذا المقال في كل من الصومال ولبنان وجنوب أفريقيا.

طُلب إلى الفرع المحلي للصليب الأحمر أن يوفر الإسعافات الأولية لتغطية مظاهرة مقرّرة، في إحدى مناطق البلد التي تشهد توترات سياسية ودينية خطيرة خلّفت قتلى ومظاهرات عنيفة.

ولم يتمكن الفرع المحلي للصليب الأحمر من تعيين أفراد من الجماعات المعنية، أو إقامة أي صلوات حقيقية معها، وأعرب عن قلقه من أن يُنظر إلى متطوعيهم بأنهم «مؤيدون» للشرطة والسلطات، أو أن يُنظر إليهم باعتبارهم جزءاً من «المؤسسة الحاكمة» التي يتظاهر ضدها المتظاهرون، ومن ثم يصبحون هدفاً للهجمات.

- كيف يردّ الفرع على طلب توفير الإسعافات الأولية لتغطية المظاهرة؟
- ما الإجراءات التي يجب أن يتخذها على المدى البعيد؟
- ما أكثر المبادئ الأساسية أهمية في هذا السياق؟

بعد ذلك، يوجّه المشاركون إلى نقاش تراعى فيه الإجابة على الأسئلة التالية: ما الذي يمكن لإدارة الفرع أن تقوم به لتعزيز صلاتها مع جميع المجتمعات المحلية، وكيف يمكن أن يشكل ذلك فرصة سانحة لإظهار عدم التحيز وتحسين الصلات مع المجتمعات المحلية، إن تم التعامل معه بشكل سليم، وكيف يجرى اختيار المتطوعين بحيث يشكلون مزيجاً متنوعاً يحظى بالقبول لدى أفراد المجتمع المحلي، ربما بالاعتماد على موارد الفروع الأخرى وموظفيها حسب الاقتضاء، ويكون مقدّمو الإسعافات الأولية أنفسهم مدركين ضرورة الحفاظ على المبادئ الأساسية وأن يُروا وهم يفعلون ذلك.

الشكل 3: أبيض وأسود على الإنترنت - أبيض وأسود في الطباعة

الشكل 3: مواد التدريب لورشة عمل (Ideals in Action) «تطبيق المثل على أرض الواقع». المصدر: فريق إدارة أيرلندا الشمالية، مجموعة تدريب ورشة عمل «تطبيق المثل على أرض الواقع»، الصليب الأحمر البريطاني، 2015.

ليست هذه الأمثلة سوى غيض من فيض. فجميع الحالات الطارئة الكبيرة أو المعقدة حول العالم تنطوي على جوانب للتنسيق أو صنع القرار في إطار الحركة، سواءً كان ذلك لمواجهة تفشي وباء الإيبولا في غرب أفريقيا في 2014-2015، أو الأزمة السورية الجارية في الشرق الأوسط. ولا يعني ذلك أن العلاقات وخيارات البرامج هذه سهلة أو خالية من المشكلات؛ وبصرف النظر، فمن غير المتصور أن يكون للحركة نطاق العمليات أو الوصول الحالي دون جميع المبادئ الأساسية، حيث يعمل مبدأ العالمية والوحدة على ربطها جميعاً ببعضها البعض.

الخلاصة

يمكن الإبقاء على المبادئ الأساسية حيّة عن طريق السجال والنقاش الجاد. وقد حققنا قدرًا هائلاً من ذلك بالفعل.⁶⁷

67 زميل سابق في إدارة الكوارث بالاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، جنيف، كانون الأول/ديسمبر 2014.

وقد تمثل المبادئ الأساسية البداية للتعرف على المجتمعات وتعيين المتطوعين، إلا أنها ليست نهاية المطاف. فينبغي إعادة النظر فيها ودراستها وتأكيدا في إطار نقاشات، واستخدامها في التصدي للمعضلات، وتعزيزها في عملية صنع القرار الإداري وإعداد الاستراتيجيات على مستوى المنظمة. ويجب أن تظل مُثلاً حية، تطبقها الجمعيات الوطنية أنثياً في سياق عملها اليومي وعند مواجهة تحديات.⁶⁸ ولدى استعراض الدراسات السابقة ووثائق الحركة، فضلاً عن المقابلات، يبرز أن المبادئ الأساسية هي التي تمكن الحركة إلى حد بعيد من إنجاز أعمالها. وتعد المبادئ أدوات عملية ومفيدة، نُقلت حرفياً إلى اللغات والمفاهيم المحلية التي لها صدى في الثقافات المختلفة. ولا تتعلق المبادئ فقط بسياقات النزاع، بل توفر الدعم لطريقة عمل الحركة في أي حالات صعبة. وبالقيادة الرشيدة والشجاعة الإدارية، تصبح المبادئ الأساسية سبيلاً لتحقيق الوصول والقبول، وتتجلى أهميتها عندما يتعرض القبول للتهديد. وبالنسبة لحركة تعتمد بصورة كبيرة على تقديم الخدمات على يد ملايين المتطوعين، فإن جميع المبادئ الأساسية السبعة تتضافر معاً ولا يمكن استخدامها استخداماً فعالاً بعزل بعضها عن بعض.

ويقدم هذا المقال طائفة من الأدلة من تسع جمعيات وطنية، كما يمثل نداءً قوياً لجمع مزيد من الأدلة. ولا شك في أن الحركة لديها عدد كبير من الأمثلة التي أدت فيها المبادئ الأساسية دوراً في تصميم البرامج وتنفيذها وتقييمها. غير أنه لم يُبدل كثير من الجهود لجمع المعلومات على أساس منهجي، مما أدى إلى ضياع ما تم تعلمه. وفضلاً عن ذلك، لا يجري جمع المعلومات، أو لا توجد عملية منتظمة لجمع المعلومات، المتعلقة بانتهاك المبادئ الأساسية. ولئن كان مفهوماً من السياق، فإن العجز عن إنشاء أدلة قوية بشأن أثر البرامج استناداً إلى المبادئ الأساسية، وبالعكس، الآثار المترتبة على العجز عن الالتزام بتلك المبادئ، إنما يضعف الحجة الأوسع بشأن فعالية العمل الإنساني القائم على المبادئ. ومن المأمول أنه ينشر هذا المقال وما على شاكلته، سيظهر وينشر مزيد من البحوث، مما سيعزز الدعوة إلى ممارسة المبادئ الأساسية وتفعيلها في جميع أنحاء العالم.

68 للاطلاع على مناقشة بشأن كيفية تطبيق المبادئ على أساس يومي، يرجى الإحالة إلى مقال «كاترين بيكمان» في العدد الحالي من المجلة.

